الأباتي بولس نعمان مشوِّهًا تاريخَ لبنان

صقر أبو فخر*

بولس نعمان راهب وأكاديميّ وسياسيّ معًا. فهو كان في إحدى الفترات عميدًا لكلّيّة الآداب في جامعة الروح القُدُس، وخَلَف الأباتي شربل قسّيس في رئاسة الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وكان في الوقت نفسه عضوًا في «الجبهة اللبنانيّة» التي ضمّت حزبَ الكتائب وحزبَ الوطنيين الأحرار وأحزابًا ميليشاويّةً صغيرةً أخرى، علاوةً على بعض الشخصيّات مثل إدوار حنيْن وشارل مالك وفؤاد أفرام البستاني. وقد كتب مذكّراته[١] ليبرهن «أنّ الأرض اللبنانيّة لولا المارونيّ لأصابها القحطُ والبوار» (ص ٣). وهذه المذكّرات، التي تتعقّب أحداثَ لبنان بين عاميْ ١٩٦٨ و١٩٨٢، أرادها الكاتبُ، من وجهة نظره بالطبع، توثيقًا للمشكلات التي بدأتْ تحوم في سماء لبنان منذ الصدامات الأولى بين الفدائيين الفلسطينيين والجيش اللبنانيّ، وتحليلاً للوقائع المتراكمة التي انتهت باغتيال بشير الجميّل في ١٩٨٢/٩/١٤.

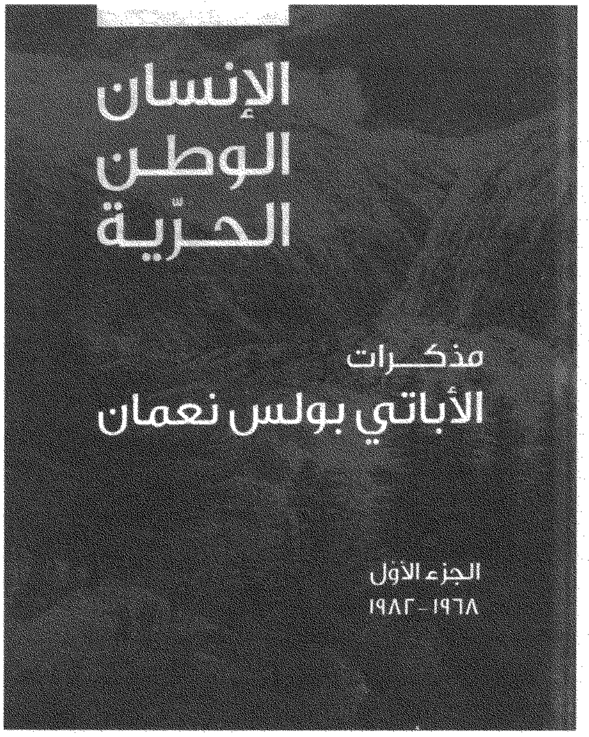

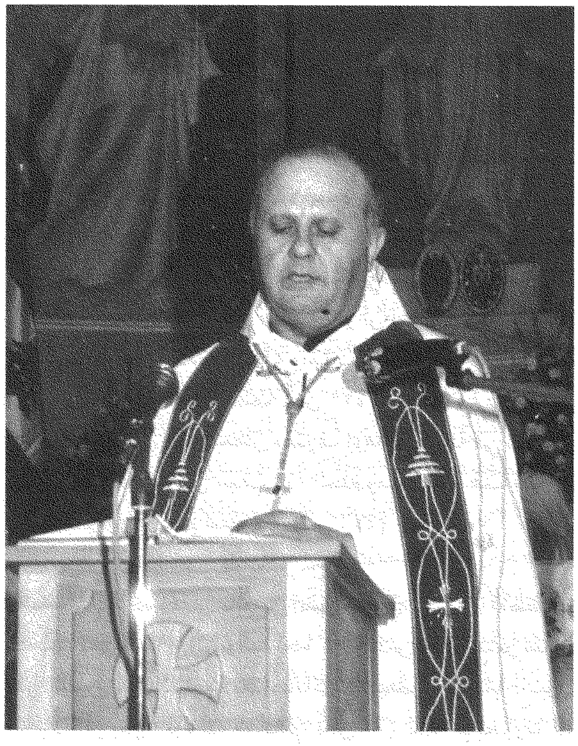

* ـ كاتب فلسطينيّ.

١ ـ **الإنسان، الوطن، الحرّيّة**. إعداد أنطوان سعد (لبنان: منشورات سائر المشرق، ٢٠٠٩).

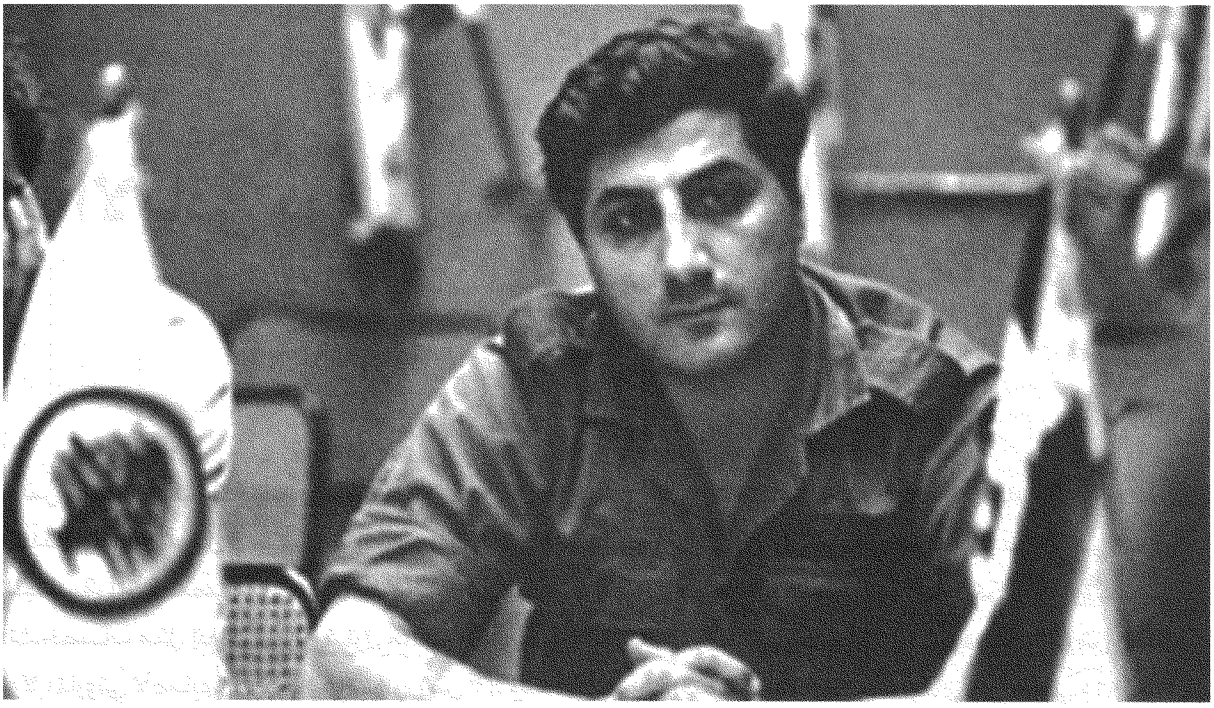

بشير الجميّل، بحسب نعمان، اختصر بمفرده مواهب أمّة بكاملها!

تَعْرض هذه المذكّراتُ نشأةَ بولس نعمان في بلدة عين تراز في الجبل اللبنانيّ، حيث وُلد في سنة ١٩٣٢. وتروي قصّة التحاقه بالرهبنة، ونَيْله الدرجة الكهنوتيّة في سنة ١٩٥٧. ثم تتحدّث عن المؤثّرات الفكريّة والسياسيّة الأولى التي أسهمتْ في تكوين وعيه وجعلِه متحمّسًا ــ في إحدى المراحل ــ لبقاء الانتداب الفرنسيّ في لبنان. ثم تَسْرد حكايةَ التحاقه بإحدى الكلّيّات في روما، وأطروحته التي كتبها لنيل الدكتوراه عن «أصول الموارنة.» اللافت أنّ نعمان يمرّ على ستّة وثلاثين عامًا من عمره (١٩٣٢ ــ ١٩٦٨) في عشرين صفحةً فقط. ويبدو لي أنّ ذلك كان مجرّدَ تمهيدٍ للولوج في صميم هذه المذكّرات، التي ركّزتْ على بدايات الصدام مع الفلسطينيين، وظهور «المقاومة اللبنانيّة،» وولادة فكرة الفيدراليّة في لبنان، ثم صعود نجم بشير الجميّل، حتى انتخابه رئيسًا للجمهوريّة في سنة ١٩٨٢ واغتياله في ١٩٨٢/٩/١٤. وفي أثناء هذا التجوال في التاريخ القريب، يُعيد الكاتبُ نبشَ أحداثٍ دمويّةٍ كثيرة، مثل إطلاق النار على جنود سوريين نائمين في الفيّاضيّة في سنة ١٩٧٨، ومجزرة إهدن في سنة ١٩٧٨ أيضًا، ومجزرة الصفرا في سنة ١٩٨٠، وتهتّك «المجتمع المسيحي» جرّاء السرقات و«السلبطة» والاشتباكات الدائمة بين الميليشيات المتنافسة لحزبي الكتائب و«الوطنيين الأحرار،» وفوق ذلك كلّه الاستعانة بإسرائيل دعمًا لخطّة وصول بشير إلى رئاسة الجمهوريّة.

اللافت في هذه المذكّرات جرأةُ نعمان في الكشف والبوح، وفي ذلك إيلامٌ كبير. فهو يتحدّث عن تفكير بعض الأوساط المارونيّة في شأن تحويل لبنان إلى دولة فيدراليّة، وعن التحوّل اللاحق من الفيدراليّة إلى التقسيم، وكيف أمكنتِ العودةُ عن هذه الأطروحات إلى فكرة «لبنان الكبير» مجدّدًا. ويعزو هذه العودة، تلميحًا، إلى الوعد الذي قطعه الإسرائيليّون لبشير بأنّ «المسيحيين سيحْظون بفرصةٍ ثانيةٍ لإعادة الاعتبار إلى دورهم في لبنان» بعد إرغام منظّمة التحرير الفلسطينيّة على الخروج من لبنان عام ١٩٨٢ (ص ٤٢٠).

غير أنّ عصارة هذه التجربة المرّة الممتدّة خمسين سنة (منذ مولده سنة ١٩٣٢ حتى أواخر ١٩٨٢) جاءت من غير أيّ محصلّةٍ متينةٍ أو ذات طعم يخالف مرارتَها. فلم يتمكّن نعمان من استخلاص أيّ عبرةٍ ذاتِ شأن سياسيّ أو مستقبليّ، بل عاد إلى ضربٍ من التأمّل الشعريّ ليقول أمرًا واحدًا، هو أنّ بشير الجميّل اختصر بمفرده مواهبَ شعبٍ بكامله وأمّةٍ بكاملها (ص ٤٦٩)، وحقّق معجزةَ العصر، وكان حُلْمًا (ص ٤٧١) ــ وهذا ما يخالفه فيه معظمُ اللبنانيين. لكنّ نعمان يعترف (وهذه فضيلة في أيّ حال) بأنّ الحلم انتهى، وأنّ غيابَ هذا الحلم وموتَ بطله هما قصاصٌ للشعب وشهادةُ عدم استحقاق (ص ٤٧٢).

النشأة. يعترف نعمان بأنّه من أصل سوريّ، ومن آل الأصفر في دمشق (ص ٣٨٥)، وأنّ والده لجأ إلى القدس وأقام عشرَ سنوات في البطريركيّة اللاتينيّة بعد مشاكل مع بعض قباضايات بيروت حيث كان يدير «لوكندة السلام» (ص ١٠). لكنه لم يخبرْنا لماذا فعل والدُه ذلك، علمًا أنّ من واجب المؤرّخ أن يذكر التفصيلات كي لا يترك لمخيّلة الفرد أن تنسج ما يوافق هواها. ثم إنّ كونه من أصل سوريّ (وهو «اعترافٌ» احتاج منه جهدًا ليبوح به كما يبدو)

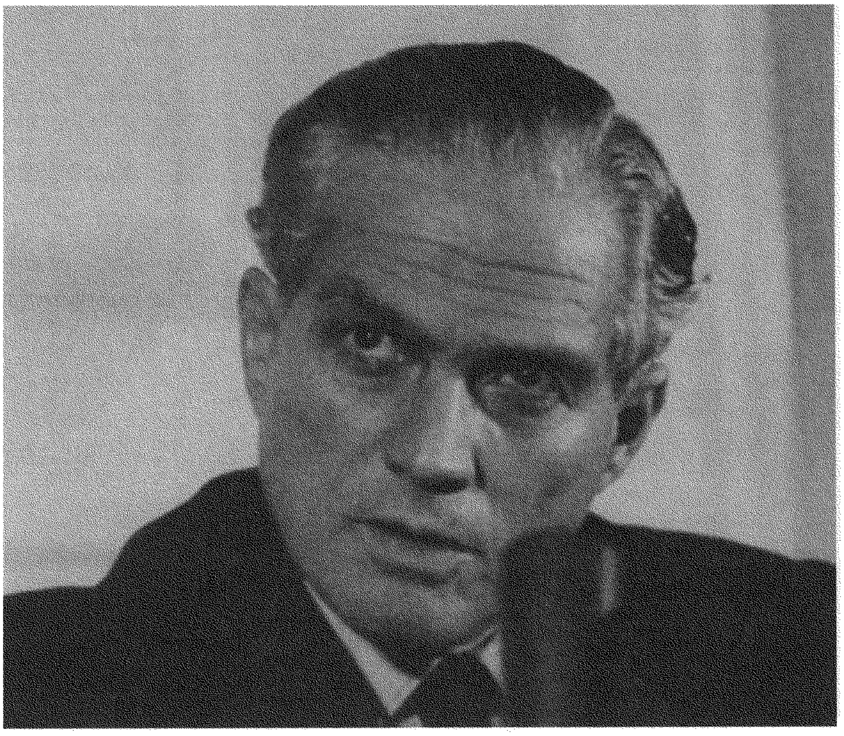

كتب كميل شمعون لمناحيم بيغين:
«لا تحتفظوا بأراضٍ مأهولةٍ بمسلمين. تجنّبوا هذا الوضع وإلاّ ستُبتلون بالمشاكل عينها!»

ليس أمرًا استثنائيّاً لأنّ معظم الموارنة والمسيحيين أيضًا هم من أصل سوريّ: فالبطريرك إلياس الحويّك من قرية سرغايا السوريّة، وآل إدّة من بلدة إزره في حوران، وآل الجميِّل من قرية يحفوفا القريبة من دمشق، وآل تويني أصلُهم من عرب المساعيد في جبل الدروز بسورية، وأمراء أبي اللمع من حلب، والأمراء الشهابيّون من شهبا في جبل العرب، وآل البستاني جاؤوا من جَبْلة إلى بقرقاشا ثم إلى دير القمر والدبيّة. ويمكننا أن نسرد مئات الأسماء التي جاءت من سورية (أو العراق): كالقدّيس شربل مخلوف (من قرية عين حليا)، والبطريرك مار نصر الله بطرس صفير (من بلدة الصفرا أو الصفيرة في حوران)، وآل الخازن وآل حبيش (من إزرع)، وآل الدويهي (من صدد)، وآل تقلا (من عمار الحصن)... وهكذا. وهنا نستذكر أنّ أحد رهبان بكركي قال لكمال الصليبي: «لا تصدِّقْ أنّ الموارنة أحفادُ الفينيقيين. نحن الموارنة أقحاحُ العرب، وأين منّا المسلمون في لبنان وسورية الذين اختلط دمُهم بدم الأتراك والأكراد والأرناؤوط والبشناق وغيرهم من تركة بني عثمان؟ نقول عن أنفسنا فينيقيين لإغاظة المسلمين.»

لكنّ نعمان حين يتحدّث عن اللبنانيين فهو يقصد الموارنةَ بالدرجة الأولى. حتى موارنة قبرص يعتبرهم لبنانيين نازحين عن جبل لبنان منذ مطلع القرن الرابع عشر إبّان الحملات المملوكيّة (ص ٥٢). في هذه الحال يجب ألاّ يستغربَ لو اعتبره البعضُ سوريًا، هبط أجدادُه السوريّون لبنانَ منذ مئة سنة فقط، علمًا أنّ لبنان منذ مئة سنة لم يكن قد نشأ في صيغته الحاليّة، وكانت جميعُ الديار شرقيّ المتوسّط ما زالت تُدعى سوريا. العلّة في هذا التفكير، بحسب ما أعتقد، هو تحويلُ نعمان الدينَ إلى قوميّة: أيْ تحويل الموارنة من طائفة دينيّة سريانيّة، أيْ آراميّة سوريّة، إلى شعبٍ له خصائصُ قوميّة. والأباتي نعمان يُفصح عن ذلك في محاضرة في ١٩٧٣/٢/٨ إذ يقول إنّ «المارونيّة استطاعت أن تكون دينًا ودولةً... وهي تحوّلتْ مع الفتح العربيّ من مذهب فكريّ روحيّ إلى شبه قوميّة ذات نظام إقطاعيّ أو دينيّ» (ص ٥٠). وهذه هي الصهيونيّة تمامًا، من حيث كونها حركة سياسيّة أرادت تحويلَ اليهود من جماعة دينيّة إلى أمّة.

لبنان الصغير وحِلْف الأقلّيّات. يقول نعمان إنّه «نشأ على الحماسة لبقاء الفرنسيين في لبنان، وإنّ صيغة ١٩٤٣ كانت ضدّ مصلحة المسيحيين» (ص١٤). نعم، بالتأكيد، فصيغة ١٩٤٣ هي ضدّ مصلحة دعاة «حِلْف الأقلّيّات» و«لبنان الصغير.» لكنْ، لماذا الحماسة للفرنسيين ما داموا هم الذين فَرَضوا هذه الصيغة؟ لقد كان كميل شمعون أكثر وضوحًا؛ ففي رسالة إلى مناحيم بيغن يقول: «فرض علينا الفرنسيّون لبنان الكبير. ضمّوا إلينا الأراضي المأهولة بالمسلمين. لقد كان ذلك سببَ جميع العلل والشرور. لا تحتفظوا بأراضٍ مأهولةٍ بمسلمين. تجنّبوا هذا الوضع وإلاّ ستُبْتلون بالمشاكل عينها.»[1] وفي سنة ١٩٣٠ كان الرئيس إميل إدّه يَجْهد لفصل بعض المناطق المكتظّة بالمسلمين عن لبنان للحفاظ على الطابع المسيحيّ للبلاد. وفي تلك السنة أيضًا ذهبتْ ماري عجمي إلى القدس بدعوة من الوكالة اليهوديّة لإلقاء محاضرة عن التحالف

١ - الان مينارغ، **اسرار حرب لبنان** (بيروت: المكتبة الدوليّة، ٢٠٠٤)، ص ١٢٧.

في سنة ١٩٣٠ كان الرئيس إميل إدّه يَجْهد لفصل بعض المناطق المكتظّة بالمسلمين عن لبنان للحفاظ على الطابع المسيحيّ للبلاد.

اليهوديّ ـ المسيحيّ. وفي سنة ١٩٤٣ أسّس بنيامين إلياف حزب «تنوعات هاعام» الصهيونيّ الذي يدعو إلى قيام حِلْف الأقلّيّات في الشرق الأوسط، وكان معه آري جابوتنسكي (ابن تيودور جابوتنسكي الفاشيّ المتطرّف) والشاعر جوناثان راتوش. وفي سنة ١٩٧٥ ظهر في لبنان «حزبُ حرّاس الأرز،» المستنسخ عن حزب تنوعات هاعام، وفيه إتيان صقر والشاعر سعيد عقل والكاتبة ميّ المرّ، ليعيدوا إنتاج البضاعة الفاسدة والخائبة نفسها.

أمّا حكاية «لبنان الصغير» التي قاد الدعوةَ إليها فؤاد أفرام البستاني وجواد بولس (ص ١٤٠)، فهي أيضًا حكاية قديمة. فالرئيس إميل إدّه كثيرًا ما جاهر بذلك منذ سنة ١٩٣٠، وقاد مع ألفرد نقّاش وأيّوب ثابت تيّارًا غايتُه إعادةُ تقسيم لبنان وتقليصُ مساحته، وفي سنة ١٩٤٦ أرسل ابنَه (من هو؟) إلى حاييم وايزمن ليقترحَ عليه أن تقوم إسرائيلُ باحتلال جنوب لبنان من الليطاني جنوبًا وبضمّ هذه المنطقة إليها! وحذا المطران مبارك حذوَه في رسالة إلى وزير الخارجيّة البريطانيّ أرنست بيغن في ١٩٤٦/١٠/٢. وكان إدوار حنيْن، ومعه فؤاد أفرام البستاني، يردّدان أنّ مشكلة لبنان تَكْمن في ترابه (مشكلتو بترابو)؛ أيْ كلّما زادت مساحةُ لبنان ازدادت مشكلاتُه، وكلّما ضاقت هذه المساحةُ انحسرتْ مشكلاتُه. ولمّا كانت إعادةُ تقسيم لبنان باتت مهمّةً مستحيلة، فقد جرى الانتقالُ إلى فكرة «الفيدراليّة» التي صاغتها لجنةُ البحوث في جامعة الروح القُدُس بالكسليك في ١٩٧٥/٨/٢٠ وأذاعها الأباتي شربل قسّيس في ١٩٧٦/١/٤. ومع أنّ هذه المشاريع كلّها خابت ودُفنتْ تحت جثث ضحايا الحرب الأهليّة، إلاّ أنّ نعمان لا يقدّم لنا أيّ مطالعة لنقدها، ولا يُعيد النظرَ في ذلك الخُبال العميم الذي غَمَرَ كثيرين بمثل تلك الأفكار والسياسات.

العلاقة بالصهيونيّة. لا ريب في أنّ أفكار «حِلْف الأقلّيّات» و«القوميّة اللبنانيّة» هي المقدّمة الأساس لنشوء سياسة التحالف مع إسرائيل؛ هذه السياسة التي لم يتمّ صوغُها في خضمّ الحرب الأهليّة بذريعة «إنقاذ الذات» كما يزعم بعضُ المؤرّخين، بل تعود إلى بداية نشوء لبنان الكبير. وفي هذا السياق يورد نعمان ما يلي: «في تلك الفترة [أيْ في أيلول ١٩٦٩] سمعنا للمرّة الأولى بعباراتٍ من مثل الاتّصال بإسرائيل، أو حتى بالشيطان، من أجل خلاص لبنان» (ص ٣٥). ويضيف: «كنّا نقول فيما بيننا... إنّ الدولة العبريّة تشكّل ملاذًا أخيرًا يمكن اللجوءُ إليه إذا ما انهار الوضعُ وتهدّد الكيانُ اللبنانيّ بالتفكّك» (ص ٣٦).

ولكنْ كيف يتصدّى نعمان لكتابة التاريخ (السيرة أو المذكّرات هي أحدُ مصادر التاريخ) وهو يَزْعم أنّه سمع بعبارة «الاتّصال بإسرائيل» أوّل مرّة سنة ١٩٦٩؟ المؤرّخ الحصيف يَعْرف تمامًا أنّ الاتّصال بإسرائيل أقدمُ من سنة ١٩٦٩ بكثير. ولتنشيط الذاكرة دونكم التالي:

منذ سنة ١٩١٩ اقترح نجيب صفير على حاييم وايزمان تقسيمَ بلاد الشام، على أن يكون لبنانُ للمسيحيين، وفلسطينُ لليهود، وسوريةُ للمسلمين، ووقّع مع يهوشواع حانكين في سنة ١٩٢٠ مذكّرةً باسم الموارنة يَعْترف فيها بحقّ اليهود في إقامة وطن قوميّ لهم في فلسطين، لقاء دعم اليهود لانفصال المسيحيين عن سوريا، والاعتراف

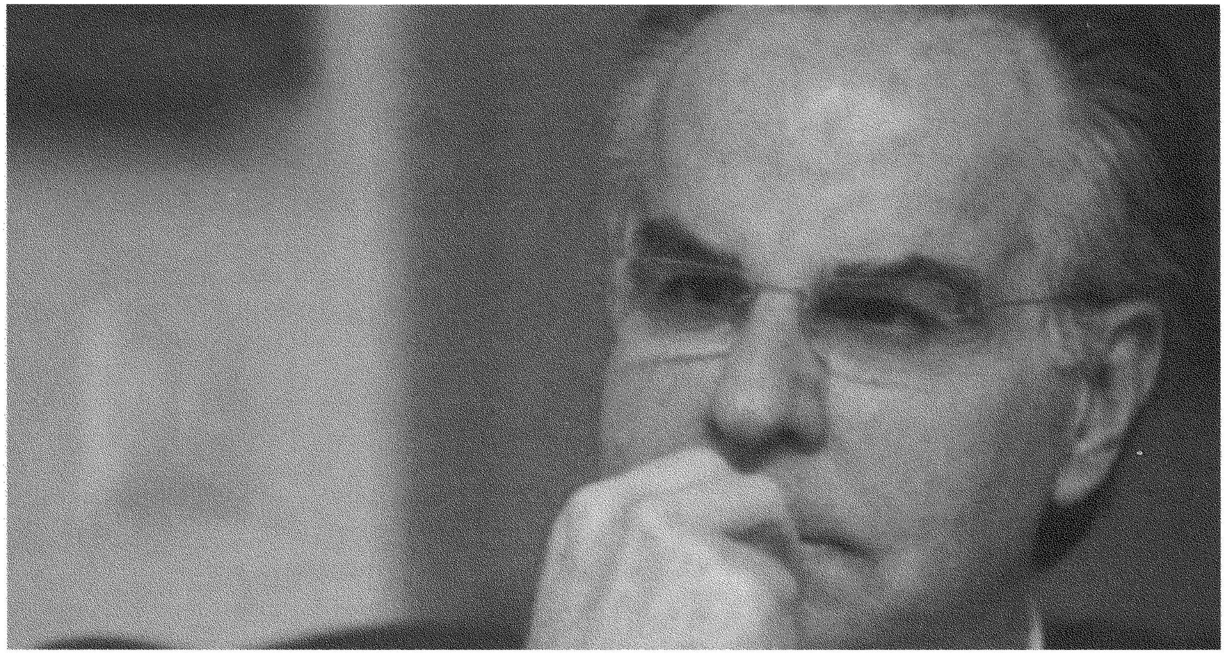

جورج عدوان كان أوّلَ مَن توجّه إلى السفارة الإسرائيليّة في باريس، والتقى فيها دايڤيد كيمحي غداةَ عمليّة كريات شمونة (١١/٤/١٩٧٤)، ليقول له: «الفلسطينيّون هم أعداء مشتركون، ونحن نريد أسلحةً منكم.»

بلبنان وطنًا للمسيحيين. وفي ١٩٤٧/٨/٥، أرسل المطران إغناطيوس مبارك رسالةً إلى لجنة التحقيق الدوليّة يؤيّد فيها قيامَ دولة لليهود في فلسطين. وفي ١٩٤٦/٥/٣٠ وقّع توفيق عوّاد، بالنيابة عن البطريرك، عريضةً مع برنارد جوزف، بالنيابة عن حاييم وايزمان، اتّفاقًا رسميًا بين الطرفين يتضمّن اعترافَ الكنيسة المارونيّة بالروابط التاريخيّة بين الشعب اليهوديّ وفلسطين، وبحقّه في الهجرة إليها وفي الإقامة فيها بحرّيّة، والموافقة على البرنامج السياسيّ للوكالة اليهوديّة لقاء عدم وجود مخطّطات لدى الوكالة اليهوديّة في شأن الأراضي اللبنانيّة، وعدم إرسال يهود للاستيطان في لبنان.[1] والمعروف أنّ المطران مبارك خاطب المصلّين اليهودَ في كنيس وادي أبو جميل في ٢٣ نيسان ١٩٣٧ قائلاً: «إنّ في لبنان مكانًا كافيًا لاستيعاب اليهود الذين يُطْردون من ألمانيا ولا يُلاقُون ترحيبًا من العرب في فلسطين. نودّ، أنا وغبطة البطريرك عريضة، أن نقول لكم: أهلاً بكم أيّها اليهود. وإذا كنتُ قلتُ لكم سابقًا إنّ غبطته هو بطريرك اليهود، فأودّ أن أعلن الآن أنّني مطران اليهود.»[2]

بالتأكيد، لم يكن المطران مبارك يجري في هذا الملعب هانئًا مسترخيًا؛ فقد أثارت مواقفُه استنكارَ الموارنة، حتى إنّ بعضَ النوّاب وقّعوا في ١٩٤٧/٩/٢٧ مذكّرةً يشجبون فيها رسالتَه إلى لجنة التحقيق الدوليّة. لكنّ بذرة التعاون مع الوكالة اليهوديّة والحركة الصهيونيّة هي التي أينعتْ في ما بعد تعاونًا مع إسرائيل، منذ سنة ١٩٤٨ فصاعدًا. ولم يكن هؤلاء وحدهم هم الذين تعاونوا مع الحركة الصهيونيّة، فالقائمة طويلة، ومنهم: سلّوم مكرزل، صاحب صحيفة **الهدى** النيويوركيّة؛ وشارل قرم، الذي أسّس مع ألبير نقّاش «جمعيّة الفينيقيين الشباب» التي روّجتْ خرافةَ أنّ الموارنة ليسوا عربًا بل فينيقيون؛ وألفرد نقّاش، الذي فرضه الجنرال كاترو رئيسًا على لبنان؛ وجوزف رحمة، الذي عرض على وايزمان شراء أسهم في شركة كهرباء قاديشا. وللعلم، فإنّ خير الدين الأحدب زار القدسَ في سنة ١٩٣٨، وكان رئيسًا للوزراء، والتقى موشيه شاريت وطلب منه دعمًا ماليّاً لتعزيز موقعه السياسيّ، وأبدى غيظَه من نشاط الحاجّ أمين الحسيني في بيروت، وطلب دعمًا ماليّاً لإنشاء جريدة تتولّى المطالبة بطرده. وكذلك رياض الصلح الذي بدأتْ علاقتُه بحاييم وايزمان منذ سنة ١٩٢١، ومع غيره من الصهيونيين أمثال إلياهو ساسون وتوبيا أرازي (من المخابرات)، وكان يبدي استعدادَه للتوصّل إلى اتّفاق عربيّ ـ صهيونيّ يَقبل العربُ بموجبه قيامَ وطن قوميّ يهوديّ في فلسطين، على أن يضع اليهودُ أموالهم ونفوذَهم في خدمة العرب.[3] وبقي الصلح على اتّصالٍ بالقسم السياسيّ في الوكالة اليهوديّة (أي المخابرات) حتى سنة ١٩٤٨ على الأقلّ، وكانت آخر اجتماعاته في باريس مع إلياهو ساسون وتوبيا أرازي في أيلول ١٩٤٨، أيْ بعد إعلان قيام إسرائيل. وقد نَشرتْ تفصيلاتِ هذه الاجتماعات جريدةُ **النهار** في ١٩٤٨/١/٢١ نقلاً عن صحيفة **نيويورك هيرالد تريبيون**.

الراهب المقاتل. يعترف نعمان بأنّ التحضير لمواجهة الفلسطينيين بدأتْ في صيف ١٩٦٩، وبأنّه عَقد لهذه الغاية عددًا

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ لورا أيزنبرغ، **عدوّ عدوّي** (بيروت: رياض الريّس للكتب والنشر، ١٩٩٧).

لم يرغب عرفات في إشعال لبنان لأنّ المقاومة ستخسر وستتورط أكثر في الوحول اللبنانيّة.

من الاجتماعات في دير مار أنطونيوس فوق بلدة رشميا (ص ٣٦)، وأسّس مع بعض الشبّان «الحركة الكسروانيّة» التي شرَعَتْ في التدرّب على السلاح (ص ٤٠). ويَذْكر أنّه تعاون مع الأب مرتينوس سابا في هذا الأمر، وجعلا محيطَ دير مار شليطا ميدانًا للتدريب، وأنّه افتتح بنفسه التدريبَ على الرماية بإطلاقه النارَ على هدف، فأصابه من الطلقة الأولى (ص ٤٦). وكان ضبّاط «الشعبة الثانية،» وبخاصّةٍ رئيسها جول بستاني، يغضّون النظرَ عن نشاط «الحركة الكسروانيّة» وجماعة «التنظيم» على مستوى دورات التدريب (ص ٥٢). والمعروف أنّ هذه الجماعة، التي ضمّت في قيادتها كلاً من فوزي محفوظ وجورج عدوان، كانت أوّلَ مَن التقى الإسرائيليين. وجورج عدوان كان أوّلَ مَن توجّه إلى السفارة الإسرائيليّة في باريس، والتقى فيها دايفيد كيمحي غداةَ عمليّة كريات شمونة (١١/٤/١٩٧٤)، ليقول له: «الفلسطينيّون هم أعداء مشتركون، ونحن نريد أسلحةً منكم.» وهكذا عُبِّد الطريق نحو تعاون وثيق مع الموساد قبل انفجار الحرب الأهليّة في سنة ١٩٧٥.

ياسر عرفات والحرب الأهليّة. يتّهم نعمان الفلسطينيين بأنّهم كانوا يفتّشون عن وطنٍ بديل (ص ٥)؛ وبالطبع، ما كانوا يفتّشون عن هذا الوطن في أوغندا أو الأرجنتين، بل في لبنان كما يوحي كلامُ الأباتي. غير أنّه لا يلبث أن ينسى هذا الاتّهام فيقول، بعد لقائه ياسر عرفات سنة ١٩٧٥، إنّ الهمّ الأوّل لعرفات التأكيدُ أنْ لا رغبةَ عنده في الحرب في لبنان ضدّ أيّ طرف لبنانيّ، لأنّ ذلك يشكّل إشغالاً غيرَ مُجْدٍ للقضيّة الفلسطينيّة (ص ٧٧). ما دام الأمر على هذا النحو، فلماذا الإصرار على مناصبة الفلسطينيين العداءَ حتى منذ سنة ١٩٦٧؟ نعم، عرفات كان يريد لبنان قاعدةً سياسيّةً وإعلاميّةً، وقاعدةً عسكريّةً في الجنوب فقط، لكنّه لم يكن يرغب في إشعال البلد لأنّ المقاومة الفلسطينيّة ستخسر كثيرًا وستتورّط أكثر في الوحول اللبنانيّة. وهو استغلّ علاقته بكريم بقرادوني وبميشال سماحة لتحسين صلته بحزب الكتائب، وكلّف أبا حسن سلامة تمتينَ صلاته بحزب الوطنيين الأحرار، وخصوصًا بداني شمعون. وحتى بعد اندلاع الحرب سنة ١٩٧٥، لم يرغب عرفات في أن تتطوّر إلى حريق شامل، وحاول حصرَها، لكنّه لم يكن اللاعبَ الوحيدَ في الميدان. والدليل أنّه احتجز أوّل شحنة سلاح ليبيّة لكمال جنبلاط، وراح يعطيه السلاحَ دفعةً وراء دفعة، وعندما كان جنبلاط يحتجّ كان يجيبه: «ولو، معقول إنّو مسؤول التسليح ما سلّمْكَ الشحنة إسّه؟ الله لا يسامحو. راح أعاقبوا.» فعلى خلاف عرفات الذي كان يريد الاستفادةَ من لبنان بتناقضاته من غير أن تنفجر في وجهه، كان جنبلاط يريد أن يكسر المعادلة اللبنانيّة وأن يعيد بناءَ لبنان بحسب تطلّعاته. وعلى خلاف عرفات الذي كان يتطلّع، بعد حرب ١٩٧٣ وبعد خطابه في الأمم المتّحدة سنة ١٩٧٤، إلى أن يَحجز له مقعدًا في المؤتمر الدوليّ للسلام الذي كان يجري الحديثُ عنه بقوّة بعد فكّ الاشتباك بين الجيوش المصريّة والسوريّة والإسرائيليّة في جنيف ١٩٧٤، كان جنبلاط يريد توسيعَ الحرب في لبنان وتحقيق انتصارٍ حاسم. وفي جميع الأحوال، لم يكن عرفات مقتنعًا تمامًا بمشروع جنبلاط لتغيير المعادلة اللبنانيّة، وتغييرِ نِسَبِ القوى في لبنان. وعندما صدرت **الوثيقة الدستوريّة** سنة ١٩٧٦ رفضها جنبلاط لأنّها أقلُّ بكثير من برنامج الحركة الوطنيّة اللبنانيّة، أمّا عرفات فتردّد في تأييدها.

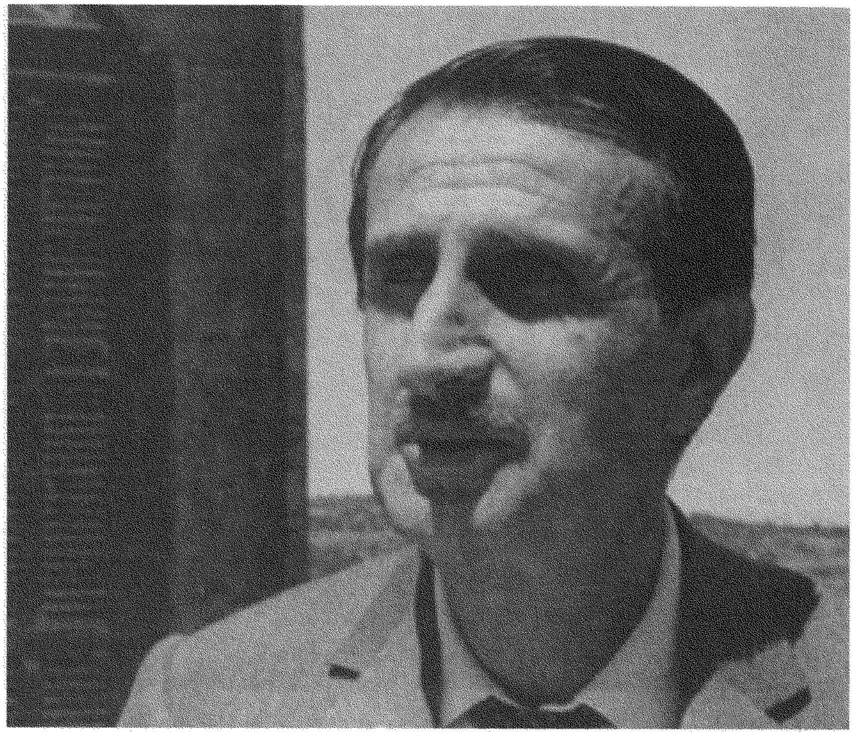

على خلاف عرفات الذي كان يريد الاستفادةَ من لبنان بتناقضاته من غير أنِ تنفجر في وجهه، كان كمال جنبلاط يريد أن يكسر المعادلة اللبنانيّة وأن يعيد بناءَ لبنان بحسب تطلّعاته.

والمشهود لعرفات أنّه حاول منذ سنة ١٩٧٠ تطمينَ اللبنانيين، ولا سيّما المسيحيين، إلى أنّه لا يرغب في أيّ وطن بديلٍ من فلسطين، وأنّه لا يريد أن يكون حليفًا لأيّ طرف لبنانيّ في مواجهة طرف لبنانيّ آخر. ولهذه الغاية أقام علاقاتٍ مكشوفةً بسليمان فرنجيّة وإلياس سركيس وكميل شمعون وبيار الجميّل، مع إدراكه التامّ للعلاقات الخفيّة التي نسجها كميل شمعون وابنُه داني وبشير الجميّل مع إسرائيل. وفي ١١/٤/١٩٧٣، بعد عمليّة فردان التي تمكّن فيها الموساد، بتواطؤٍ مع جهات لبنانيّة، من اغتيال كمال عدوان وكمال ناصر ومحمّد يوسف النجّار، قرّر عرفات أن يزور بيار الجميّل في منزله ليشكرَ له مشاركته في تشييع القادة الثلاثة. وبعد الزيارة صعد إلى سيّارة كريم بقرادوني، وطلب إليه التجوّل في الأشرفيّة، وراح يُحيّي المارّة الذين نظروا إليه غيرَ مصدّقين. وكان قصده واضحًا من هذه الخطوة. لكنّ هنري كيسنجر، صاحبَ سياسة «الخطوة خطوة،» كان يفكّر بطريقة مختلفة في شأن لبنان والفلسطينيين، وهو أمر لم يدركه الأباتي نعمان أو أغمض عينيه عنه قصدًا.

أيّار ١٩٧٣ ومقدّمات الحرب. يقول نعمان: «عندما حاولت السلطاتُ اللبنانيّة سنة ١٩٧٣ معالجةَ الفلتان الفلسطينيّ المسلّح، كانت سوريا في مقدّمة المتوعّدين بالثبور وعظائم الأمور ضدّ لبنان وقوّاته المسلّحة التي كانت تقوم بواجبها وكادت تنجح في مهمّتها» (ص ١٢٠). لعلمه، نعيد تكرار ما يتجاهله، وهو أنّ أحداث ٢/٥/١٩٧٣ لم تكن معالجةً للفلتان الفلسطينيّ المسلّح، وأنّ القوّات المسلّحة اللبنانيّة لم تكن تقوم «بواجبها» آنذاك، بل بتنفيذ خططٍ أميركيّةٍ خالصة، كما كشف عنها كثيرون أمثال آلان مينارغ في كتابه **أسرار حرب لبنان** (ص ٩٠) حين ذكر أنّ وزارةَ الدفاع الأميركيّة عرضتْ على الحكومة اللبنانيّة سنة ١٩٧٣ تقديمَ مساعدة عسكريّة كبيرة إذا كان الهدف إنهاء وجود منظّمة التحرير. ويَذْكر جوناثان راندل في كتابه **حرب الألف سنة حتى آخر مسيحي** (بيروت، ١٩٨٤) أنّ الإدارة الأميركيّة ضغطتْ على الرئيس فرنجيّة للقضاء على الفلسطينيين، فكانت المواجهة في أيّار ١٩٧٣؛ وحين اكتشفتْ أنّ الجيش اللبناني لا يمكن الاعتمادُ عليه في هذه المهمّة، بدأت الإعدادَ لتكليف الميليشيات المسيحيّة بها. وهو يكشف أنّ الولايات المتّحدة كانت «غارقةً في فضيحة ووترغيت، وفضيحةِ الخروج من فيتنام، والإخفاقِ المذلّ في أنغولا... [فأرادت] أن تفعل شيئًا يعيد إليها الهيبةَ في الشرق الأوسط وتقضي على منظّمة التحرير...» ويقول ويلبر كرين إيفلاند: «في الثلاثين من نيسان ١٩٧٥ أعلن الرئيس فورد انسحابَ الولايات المتّحدة الأميركيّة من فيتنام. إنّها سياسة كيسنجر لإلهاء العالم عن مشاكل أميركا الأخرى. وبدافع من الرغبة في السيطرة على الأزمات الاقتصاديّة، وعلى أزمة الطاقة التي خلّفتها حربُ ١٩٧٣، بدأ كيسنجر ينفّذ سياسةً جديدة آملاً أنّها ستؤدّي إلى تبخّر الفلسطينيين.»(١)

أمّا أنّ سورية توعّدت الحكومة اللبنانيّة حينذاك، فهذا صحيح؛ بل إنّها أغلقتْ حدودَها مع لبنان ووجّهتْ إنذارًا إلى

١ ـ **حبال من رمل** (بيروت: دار المروج، ١٩٨٥)، ص ٢٢٣.

بطل بولس نعمان: المقاتل المقنّع (مجزرة الكرنتينا ـ المسلخ).

الحكومة اللبنانيّة لوقف قصف المخيّمات (وكذلك فعلتْ مصر). ذلك لأنّ البلدين كانا بدأا العدّ العكسيّ لحرب تشرين الأوّل ١٩٧٣، وكان من شأن أيّ مشكلة كالتي افتعلتْها السلطاتُ اللبنانيّة آنذاك أن تطيح خططَ الحرب. ولهذا جاء الإنذار السوريّ حاسمًا وحازمًا، فتوقّفت الحربُ في سنة ١٩٧٣، لتعود وتنفجر في ١٣ نيسان ١٩٧٥، حين قامت مجموعةٌ من حزب الوطنيين الأحرار بارتكاب مجزرة عين الرمّانة المشهورة.[١] ويروي إيڤلاند أنّ محطّتي المخابرات الأميركيّة في أثينا وروما، والإسرائيليين أيضًا، أرسلوا أسلحةً إلى الميليشيات اليمينيّة، وأنّ داني شمعون اعترف بنفسه بتلقّي أسلحة بملايين الدولارات بين عاميْ ١٩٧٤ و١٩٧٥. وكشف جنبلاط أنّ وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة وإسرائيل دفعتا ٢٥٠ مليون دولار لهذه الميليشيات في سنة ١٩٧٥ وحدها. وذكر السيناتور جيمس أبو رزق أنّ تلك الوكالة دفعتْ للإسرائيليين ٨٠ مليون دولار ثمنًا لأسلحة أُرسلتْ إلى هذه الميليشيات.[٢]

خرافة الاختلاف والفرادة اللبنانيّة. يقول نعمان: «كنّا شديدي الاعتزاز بالتجربة الديموقراطيّة الوحيدة في العالم العربيّ، وبالمستوى الثقافيّ والفكريّ الذي كان لا يقلّ رقيّاً واحترافًا ومهارةً عن بلدان أوروبا والعالم... لبناننا هذا معرّض للخطر نتيجة اختلافه جذريّاً عن محيطه» (ص ٣٤)... إنّه «نمطُ حياةٍ لا مثيل له تحت الشمس» (ص ١٢١)... نحن «ندافع عن نمط حياةٍ وسلّم قيمٍ ومجموعةِ مبادئ» (ص ٣٠٠).

هذا الكلام جزء من الأهزوجة الشائعة المجِّدة دومًا لهذا البلد. لكنّ فكرة «الاختلاف اللبنانيّ عن محيطه» مجرّدُ خرافة، عاشت طويلاً تحت راية الارتباط التاريخيّ بالغرب عبر بوّابتين أساسيّتان: ارتباط الكنيسة المارونيّة السريانيّة (أي السوريّة) بالفاتيكان، وارتباط كرخانات «شيل» الحرير في الجبل اللبنانيّ بمصانع الحرير في ليون وبعض المدن الفرنسيّة الأخرى، علاوةً على خدمات الإرساليّات الكاثوليكيّة. وهذا الارتباط أورث بعضَ الجماعات الجرديّة تعاليًا على المحيط العربيّ، بما في ذلك مناطق بيروت وطرابلس والجنوب التي جرى ضمُّها إلى لبنان من دون إرادة أهلها، بل من دون إرادة كثيرين من سكّان جبل لبنان نفسه. وهذا التعالي العنصريّ يُشْبه استعلاءَ الخادمة الريفيّة التي تعمل في منازل أهل المدينة؛ فهي حين تعود إلى قريتها في زيارات متباعدة، تستعلي على رفيقاتها من بنات القرية بما اكتسبتْه من سلوك مدينيّ! ومرضُ الاستعلاء العنصريّ يتجاور مع خرافة التفوّق الحضاريّ على الأقوام المجاورة. لكنّ فكرة التفوّق الحضاريّ منقلبة من عقدة الخصاء الحضاريّ والشعور بالخوف من المحيط وكره الأقوام المجاورة معًا.

إنّ لبنان الحديث هو، في نهاية المطاف، دمجٌ لنظامين من القيم: قيم الجرد والعصبيّات العشائريّة والعائليّة، بما في ذلك قيم «المرجلة والحوربة»؛ وقيم الساحل التجاريّ الذي تعوّد، تاريخيّاً، أن يخضع

١ ـ **السفير**، ٢٠٠٧/٤/١١.

٢ ـ زئيف شيف وإيهود يعري، **حرب الظلال** (بيروت: د. ن.، ترجمة: وهيب أبو واصل، ١٩٨٥).

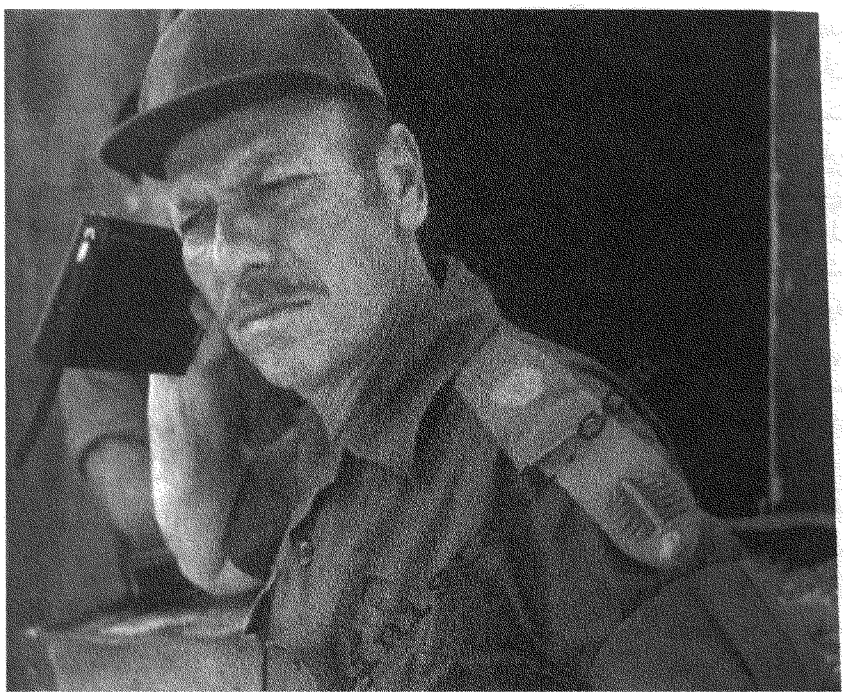

«سعد حدّاد الذي صمد في أرض الجنوب (بحسب بولس نعمان) كان يعمل لمصلحة الاستخبارات الإسرائيليّة.

ويؤدّي الضريبة في سياق الانفتاح والمساومة والمسالمة حمايةً لمصالحه التجاريّة حيث تنمو في سياقها «قيمُ البهورة.» إذًا، مقابلَ قيم الجرد المارونيّة ــ الدرزيّة أساسًا، أقامت البرجوازيّةُ السنيّة، والأرثوذكسيّة استطرادًا، نظامَ المحسوبيّة، الذي التحقتْ به البرجوازيّةُ المارونيّة التي راحت تهبط من الجبل إلى المدينة منذ قيام لبنان الكبير في سنة ١٩٢٠ فصاعدًا. وكلُّ لبنانيّ محسوبٌ على طائفة أو زعيم (كلمة «محسوبكم» هي أكثر الكلمات شيوعًا في لغة النفاق اليوميّة). وفي هذا النسق القيميّ «المختلف والفريد،» ازدهرتْ بيروتُ لا كمدينةٍ من طراز مرسيليا مثلاً، بل كمدينة من طراز طنجة (انسوا عبارة «باريس الشرق»!). ومع أنّ بيروت ازدهرتْ بجامعاتها ومصارفها وصحُفها ودُور النشر فيها، علاوةً على مطارها ومينائها وأموالِ العرب المتدفّقة إليها، إلاّ أنّها كانت، في وجهها الآخر، مدينةَ البارولي والقمار والمخدّرات والاستخبارات وتجارة السلاح والجنس والبشر للقادمين إليها من العرب والأجانب. وهي مدينة لم تتمكّن من أن تخلع عنها رداءها التقليديّ؛ فحتى زعماءُ الأحياء تحوّل بعضُهم إلى قادةِ ميليشيات إبّان الحرب الأهليّة، أمثال إبراهيم قليلات وعصام العرب. وهذا هو بالضبط مجتمعُ ما قبل الدولة الحديثة الحامية: فحين يشعر مجتمعٌ ما، أكان قبيلةً أمْ طائفة أمْ منطقة، بالخوف وعدم الأمان، يلتفّ حول أكثر رجاله قوّةً ودمويّةً بحثًا عن الحماية والانتقام. لذلك لا عَجَبَ في هذا البلد «الفريد» أن يُستقبل القاتلُ، عندما يخرج من السجن، بقرع الأجراس، ويُحمل على الأكتاف. والزعماء اللبنانيّون لا ينفكّون عن الكلام على الديموقراطيّة، وجميعُهم دكتاتوريون في طوائفهم، وأقاموا في ما بينهم نظامًا «فريدًا» يضمن حصّة كلّ منهم وحصّة جماعته.

حسنًا، ما هو «نمط الحياة» التي يَفْخر به نعمان؟ وما هي علاماتُ «سُلّم القيم» و«مجموعة المبادئ» خلال نحو خمسين سنة منصرمة؟ لقد أُريقت الشمبانيا فوق جثث القتلى في تلّ الزعتر. وكانت الصورةُ النمطيّة للمقاتل، الذي ساهم نعمان في صنعه، هو المقاتل المقنّع الذي يتدلّى الصليبُ الخشبيُّ من عنقه، وصورةُ العذراء ملصقة على بندقيّته: «بصلبانهم المضرّجة بدماء أعدائهم فتّحوا زُجاجاتِ الشمبانيا فوق أكوام الجثث. آخرون عزفوا على الآلات الموسيقيّة وأرجلُهم تطأ رقابَ الموتى.»[1] وجورج حبيس، أحدُ زعران الخطف في بيروت الشرقيّة، كان يقول: «الفلسطيني لا نحقّق معه ولكن نقتله» (المصدر السابق). وتروي ريجينا صفير أنّ أعضاء الميليشيات اليمينيّة حين أخذوا جماعة إيلي حبيقة إلى الشاطئ، «قتلوهم ووضعوا أثقالاً في أرجلهم ثم قذفوا بهم إلى الماء.»[2] ومع أنّ نعمان لم يُغفل الكلامَ على الاغتيالات المتبادلة بين الكتائب من جهة، و«المردة» (الشمال) و«حرّاس الأرز» (البترون) و«الأحرار» (جبل لبنان) من جهة ثانية، وتحدّث عن خطف شارل غسطين وإطلاق النار على شقيقه، وعن محاولة «القوّات» اغتيال فؤاد بطرس في ١٩٧٨/١١/٢ ردًا على مقتل النقيب سمير الأشقر، فإنّ أبطاله المحبوبين كانوا من قماشة سمير الأشقر وسعد حدّاد وبشير الجميّل.

١ ــ جوزف سعادة، **أنا الضحيّة والجلاّد أنا**، ص ١٥٧.

٢ ــ ريجينا صفير، **ألقيت السلاح** (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٨).

وللتذكير، فإنّ الأشقر قَتَلَ غدرًا في سنة ١٩٧٨[1] جنديًا سوريًا وجرح ٣٦ آخرين بينما كانوا يستيقظون من نومهم. وأمّا سعد حدّاد الذي صمد في أرض الجنوب، بحسب وصف نعمان له (ص ٢٦٨)، فكان يعمل لخدمة الاستخبارات الإسرائيليّة في الشريط الأمنيّ الإسرائيليّ في جنوب لبنان. أما بشير الجميّل، الذي كان ميشال أبو جودة يصفه بأنّه «موسوليني صغير وهتلر صغير وفرانكو صغير،» فكانت المخابرات الأميركيّة قد جنّدته أثناء التحاقه بفصل دراسيّ في الجامعة الميثوديّة الجنوبيّة١٣؛ وهو دشّن حياته السياسيّة بمجزرة الكحّالة سنة ١٩٦٩ ضدّ مدنيين فلسطينيين عائدين من تشييع رفيق لهم في دمشق، ووُجدتْ خوذاتُ بعض هؤلاء في صندوق سيّارته والنخاعُ ما زال عالقًا فيها؛ وأسهم بقسطٍ كبير في مجازر كثيرة أغفلها نعمان، مثل مجازر السبت الأسود وحارة الغوارنة وسبنيه (١٩٧٥)، والمسلخ والكرنتينا وتلّ الزعتر والنبعة وبرج حمّود (١٩٧٦). ولماذا أغمض نعمان عينيه عن اغتيال ليندا جنبلاط في سنة ١٩٧٦، وقتل خليل سالم في السنة ذاتها، ومحاولات اغتيال ريمون إدّة (في سنة ١٩٧٦) وكميل شمعون (في سنة ١٩٨٠)... وجميع هذه الأحداث من إعداد أبطاله المحبوبين وإخراجهم وتنفيذهم.

حكايات الضيعة. يختار نعمان من مفكّرته الريفيّة هذه الحكاية: في مدينة كولورادو الأميركيّة، وجرّاء الاختلاف في المواقف السياسيّة، قام الدبلوماسيُّ اللبنانيّ ملحم سلمان بدفع السيناتور سام زاخم وقال له: «اعرفْ مع من تتكلّم. أنا ملحم سلمان الدرزيّ.» فما كان من سام زاخم إلاّ أن ردّ عليه بالقول: «خذها إذًا من يد أرثوذكسيّ،» ولكمه على وجهه ورماه على الأرض وجلس فوقه وأخذ يضربه (ص ٨٠).

أظنّ أنْ لا خلاصة لهذه الحكاية إلاّ البهورة الطائفيّة المنفّرة. وعلى هذا المنوال ينسب نعمان كلامًا إلى فؤاد أفرام البستاني، هذا نصُّه: «قد يكون من المناسب التحالفُ مع الشيعة لأنّهم طلبوا الانضمامَ إلى دولة لبنان الكبير عندما استفتتْهم لجنةُ كينغ ــ كراين بعد الحرب العالميّة الأولى» (ص ٢٦٩). طيّب! إذا كان الشيعة وافقوا على الانضمام إلى دولة لبنان الكبير، فلماذا تآمر حلفاءُ فرنسا من اللبنانيين، أمثال إميل إدّة، على ترحيل الشيعة إلى العراق، وتسليم جنوب لبنان إلى إسرائيل؟ ومهما تكن الحال، فقد كان على نعمان أن يرجع إلى كتاب اسكندر رياشي، **رؤساء لبنان كما عرفتهم** (دمشق: دار أطلس، ٢٠٠٦)، ليعرف كم دفعتْ فرنسا لبعض زعماء الشيعة في بعلبك والهرمل، وبيد رياشي نفسه، كي تأتي نتيجةُ الاستفتاء كما هو معروف. ولماذا يتجاهل نعمان مؤتمر وادي الحجير (٢٤/٤/١٩٢٠) الذي حضره ٦٠٠ من أعيان الشيعة وقرّروا الموافقة على قرارات المؤتمر السوريّ العام في سنة ١٩١٩ برفض الحماية الفرنسيّة ومبايعة فيصل الأوّل ملكًا دستوريًا على سوريا والتحاق جبل عامل بسوريا؟ وفوق ذلك ينقل عن محسن سليم، الشيعيّ، في ٢٨/٩/١٩٧٩ أنّ في إمكان الشيعة والمسيحيين والدروز أن يؤسّسوا لبنان الجديد، أمّا السُّنّة فلن يكون أمامهم إلا الرضوخ والانضمام إلى لبنان أو الخروج منه» (ص ٢٨٩).

لقد استهوت كلمةُ «الخروج» بعضَ اللبنانيين؛ وهذه الكلمة مرادفة لكلمة «الطرد» أو «الترحيل.» فقبل كلام محسن سليم، تفاوض في ثلاثينيّات القرن العشرين إميل إدّة مع الوكالة اليهوديّة على ترحيل الشيعة إلى العراق. وفي سنة ١٩٨٢ طالب كثيرون بخروج الفلسطينيين من لبنان. وعندما صعدت «القوّاتُ اللبنانيّة» إلى الشوف سنة ١٩٨٢ راحت تهدّد الدروزَ بالترحيل إلى جبل الدروز في سوريا. ونعمان نفسه اعتقد أنّ المسيحيين سوف يَحْظَوْن بفرصة ثانية لإعادة الاعتبار إلى دورهم في لبنان لو خرجتْ منظّمةُ التحرير نهائيًا منه لأنّ من شأن ذلك أن يتيح للبنانيين أن يتفاهموا فيما بينهم (ص ٤٢٠). وتكرّر الأمرُ نفسه قبل الخروج السوريّ من لبنان في سنة ٢٠٠٥.

حسنًا، خرج الفلسطينيّون عسكريًا وسياسيًا في سنة ١٩٨٢، فماذا فعل اللبنانيّون، والموارنةُ بصورةٍ خاصّة؟ لقد خاضوا حربًا أهليّةً أشدَّ هولاً من حرب ١٩٧٥ ــ ١٩٨٢. ثم خرج السوريّون من لبنان، فعلامَ استقرّ البلد؟ على تسوّس أشدّ وتهتّكٍ أكبرَ ممّا كان عليه قبل سنة ٢٠٠٥، وبأيدي اللبنانيين بالدرجة الأولى، الأمرُ الذي جعل شعارَ «حروب الآخرين على أرضنا» مثالاً للشعارات الزائفة والمضحكة. وعلى سيرة الفلسطينيين، يروي الأباتي أنّه توجّه إلى عرفات بالقول: «أودّ أن أذكّرك بأنّنا لسنا نحن [أي المسيحيين] مَن باعوا أراضيهم في فلسطين» (ص ٧٨).

غريبٌ هذا التجاهُل للوقائع الموثّقة! ربّما نلتمس للأباتي عذرًا في هذه المسألة، ونجعل ذلك في خانة الجهل. لذلك لا بدّ من تصحيح الغلط الذي لا يزال يدور في الأفواه والأشداق، فنقول إنّ ٩٤٪ من الأراضي التي امتلكتها الوكالةُ اليهوديّة والصندوقُ القوميُّ اليهوديّ في فلسطين حتى سنة ١٩٤٧ باعها لبنانيّون من عائلات سرسق وتيان وتويني والخوري وسلام والأسعد وقبّاني وفرحات وبيْهم، علاوةً على أفراد من عائلات سوريّة مثل الجزائري والشمعة والقوّتلي ومارديني واليوسف. فالسيّد ميشال سرسق والسيد محمّد بيهم باعا أراضي الحولة، وكان عليها ١٥٠٠ عائلة فلسطينيّة شُرّدتْ كلّها؛ وباع آل سرسق أيضًا مَرْج ابن عامر الذي بلغتْ مساحته ٤٠٠ ألف دونم، وعليه كانت تقوم ٢٠ قرية تقطنها ٢٥٤٦ أسرة، أو ما يعادل ٢٦ ألف فلسطينيّ، وهؤلاء جميعًا طُردوا من المكان الذي عاشوا فيه مئات السنين. وباع ميشال وأنطوان تيان حصّتهما من وادي الحوارث في فلسطين سنة ١٩٢٢ (أكثر من ٣ آلاف دونم). وباع آل تويني وآل صبّاغ ما كانوا يملكونه من أراضٍ في السهل الساحليّ. وأتمنّى على الأباتي نعمان أن يعود إلى ما فعله خير الدين الأحدب وصفي الدين قدّورة وجوزف خديج وميشال سارجي والياس الحاجّ ومراد دانا (يهودي) بالأراضي اللبنانيّة في صور وصيدا التي باعوا اليهودَ منها نحو ١٠٠ ألف دونم. أليس كذلك يا حضرة المحترم؟

بيروت

١ ــ يوسي ميلمان، **أمراء الموساد** (بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، ١٩٩١).